

# وحدة العقل في نقد العقل الخالص»

د. غانم الرئيسي<sup>(\*)</sup>

«العقل الانساني معياري بطبيعته، أي انه ينظر الى كل معرفة على أنها تابعة لسستام ممكن<sup>(1)</sup> . وأعني بالسستام وحدة المعرف المختلف منطوية تحت فكرة؛ وهذه الفكرة هي الأفهوم<sup>(2)</sup> الذي للعقل عن صورة كليلة إذا تعين بها نطاق مختلف كاماً ومكانة الأجزاء من بعضها قبلياً<sup>(2)</sup>. من هنا كان البحث عن «فن السساتيم موضوع وأساس القديمة، يتبع فيه كنط ربط الوحدة، القائمة على أنها أساس كل معرفة، وبين دورها في ثلاثة مشروعه الفلسفى: «نقد العقل المحسن»، «نقد العقل العملى» و«نقد ملکة الحكم».

يتناول البحث في وحدة العقل في النقد الأول أطراف موضوعات أخرى نرى أهمها في التمييز المحوري الذي أقامه كنط بين العقل<sup>(3)</sup> والفاهمة<sup>(4)</sup> والذي اشار اليه هيغل حين قال: «كان كنط أول من ابرز بالتأكيد الفرق بين الفاهمة والعقل مقرأً إياه بتحديد المتأنثي والمشروط موضوعاً للفاهمة واللامتأنثي واللامشروط موضوعاً للعقل»<sup>(4)</sup>. ولكل من الفاهمة والعقل وحدة خاصة به: وحدة الفاهمة ووحدة العقل. الأولى وحدة تأليفية<sup>(5)</sup> قبليه وهي شرط كل تجربة عكسته كتجربة، شاملة وضرورية موضوعية بأكثر معانٍ الموضوعية دقة. هي عامل مقوم للمعرفة بل لا معرفة بذاتها، أما شموليتها وضرورتها فتأتيان عن طابعها القبلي المحدد، الذي أظهره كنط في دراسة المكان والزمان والمقولات وغيرها، كاشفاً القناع عن الشروط القبلية في محاولته إعادة بناء التجربة ليرى علمية الرياضيات والعلم

(\*) أستاذ بجامعة دمشق

(1) في الأصل يستخدم المؤلف منظومة ومشتقاتها وأحياناً سقية بدل سستام. وقد ابدلتها جينياً (M. و)

(2) في الأصل: المفهوم (M. و)

Vernunft (3)

(4) في الأصل الفهم Verstand

(5) في الأصل تركيبة Synthetisches

الطبيعي من خلال علمية المعرفة النظرية القائمة على التجربة. ففي وحدة الفاهة، حيث يتنظم الاحساس والخدس والتجربة لتشكل هذه الوحدة، يتم تعين «طبيعة العقل النظري المحسن»، على أنها بناء عضوي حقيقي؛ الكل فيه عضو بوجوده من أجل الجزء وجود الجزء من أجل الكل»<sup>(5)</sup>.

لكن سؤال النقد الأول: كيف تكون الأحكام التأليفية ممكنة<sup>(6)</sup>? أو: ما هي امكانية التجربة؟ لا يجد في تلك الوحدة جواباً نهائياً؟ ذاك أن البحث عن امكانيتها ينقل السؤال إلى مستوى البحث عن شروط امكانية تلك الوحدة - والشروط قبلية، لاقع تحت التجربة من حيث إن كليتها بذاتها لا تقع تحت تجربة ان التأكيد من شروط امكانية المعرفة قبلياً يقود الى السؤال حول الكلية وهذا من حيز الميتافيزيقا النظرية، موضوع الجزء الأخير من «نقد العقل المحسن». هذا السؤال هو الذي يقودنا الى وحدة من نوع جديد، هي وحدة العقل، أي وحدة المبادئ العامة أو الأفكار الثلاث: فكرة الطبيعة، فكرة الحرية وفكرة الله. وتبين هذه الوحدة يبلغ «العقل المحسن» غايتها حتى وإن لم تبلغ النقدية الكنطية نهايتها فستبقى تسعى في التقددين الآخرين نحو وحدة من نوع جديد مظهرة «شروط امكانيتها القبلية».

وحدة العقل سستامية<sup>(7)</sup> وقبلية. لكنها لا تدخل في توطيد علمية التجربة والبحث عن شروطها القبلية، بل تضع بطابعها التأليفي (والتأليف هو عمل توحيد الكثرة) بناءً تراتيباً متدرجاً تنقل التجربة به الى شمولية أوسع؛ من هنا كانت مطلباً<sup>(8)</sup> أو مهمة، على العقل أن يعمل دوماً على انجازها. وان الكلية التي تقضي بها هي كلية يتطلبها الفكر، أنها تبقى هدفاً<sup>(9)</sup> ولا تصبح واقعاً معطى على أنه موجود حقيقي؛ هي «حقيقة» لنا؛ لذا لا تكون وحدة العقل المحسن المستمرة مكونة من مكونات المعرفة ولا تخضع لشروطها ان وحدة الفاهة هي مكونة المعرفة لا وحدة العقل، وهذا أساس فهم كنط للفلسفة النظرية، موضوع «نقد العقل المحسن».

\* \* \*

يبدأ النقض الحقيقي في «نقد العقل المحسن» مع الجدل الترانسندنتالي «حيث يعالج في ذات الحين صلب الميتافيزيقا وموضوعها الخاص، أي اهتمام العقل بذاته فقط، دون توسط التجربة»<sup>(7)</sup>. وقد مهدت الأجزاء السابقة للسؤال حول إمكانية الميتافيزيقا كعلم وأعدت له، لكنها لم تطهه جواباً. أنها ثبتت البرهان على علمية الرياضيات والعلم الطبيعي حين ثبتت صحة الأحكام التأليفية قبلياً، لكن المعرفة وفت بهذا على ابواب علمية الميتافيزيقا المنشودة. وقد أظهر كنط كيف أن وحدة الفهم هي وحدة كل معرفة ممكنة. وحدة تأليفية قبليه تحدد كل تجربة وكيف تكون هي صورة التجربة عنها.

لكن تساؤلاً حول هذا الانجاز المضني في التحليل الترانسندنتالي يبين كيف أن النقد، حتى مرحلة الجدل، يقدم براهين على ما لم يكن أحد ليشك فيه: شمولية صلاحية<sup>(10)</sup> وضرورة<sup>(11)</sup> الأحكام في الرياضيات وعلم الطبيعة.

(6) في الأصل نسقة Systematisch

Aufgabe (V)

Ziel (A)

Allgemeingültigkeit (9)

Notwendigkeit (10)

---

اما الميتافيزيقا - ويفصل بينها وبين العلوم النظرية تلك شرخ لا يردم - فلم تقدم خطوة واحدة من البرهان على علميتها، او لنقل بدقة على امكانيتها كعلم؛ لا بل يجدوا لأول وهلة وكان ما وصلنا اليه يحملنا على القول: ان الميتافيزيقا غير مكنته كعلم<sup>(8)</sup>.

من جهة اخرى يفترن السؤال عن الميتافيزيقا كعلم اقتراناً جوهرياً بالسؤال عن العقل ذاته؛ هل تأتي علمية الميتافيزيقا عن صحة الرياضيات أو علم الطبيعة كعلوم شاملة وضوروية موضوعياً؟ أم أن في الأمر كما في الطرح مفارقة؟ ان السؤال المطروح على هذا الشكل لا يسمح بالقول ان المقصود هنا هو محتوى تلك العلوم، فتأكيد شمولية وضرورة احكام الرياضيات وعلم الطبيعة ليس سوى تأكيد على المكونات القبلية للفاهمة فقط، بمعنى ان الأحكام القبلية، احكام الفاهمة هي وحدها موضوع البرهان وليس محتواها أو موضوعها، ذلك أن الموضوع أو الفحوى هو «ظاهرة» لا تعرف بما هي عليه بذاتها. فالاحكام التأليفية «لا تدخل أبداً الى داخل الأشياء أي الى ما ليس ظاهرة»<sup>(9)</sup>.

ويؤكد كذلك ان «التجربة لا يمكن ان تكفي العقل»<sup>(10)</sup>؛ انه يطمح الى أكثر منها؛ لا يكتفي بما في الفاهمة، بل يتوجه الى وحدة اخرى يقودنا اليها الجدل الترانسندنتالى بهمتيه السلبية والاجيابية: الاولى هي رفض اعتقاد افكار العقل المحس بموضوعية والشمولية وتبرير الرفض بالبيان الاكيد ان الموضوعية هي من حق التجربة وحدها. فهل يكون ضرورياً والحال هذه، ان نفصل بين معرفة الفاهمة (التجربة) - وهي نظرية - و«معرفة» أخرى للعقل المحس؟ أم نقول ان لا علاقة بين معرفة الفاهمة واستخدام العقل المحس؟ القول بالاجياب ينفي اية جدلية في العقل كما يتضمن استحالة الانتقال من السؤال: «كيف تكون الاحكام التأليفية مكنته قبلياً الى السؤال: «كيف تكون الميتافيزيقا مكنته كعلم».

ولكن للجدل الترانسندنتالى في «نقد العقل المحس» مهمة ثانية ايجابية، قوامها تبيان علاقة معرفة الفاهمة بـ «المعرفة» الترانسندنتالية بواسطة المبادئ أو الأفكار، علاقة تعبّر عن وحدة الفهم التأليفية القبلية بالعقل المحس فيتكون افهوم وحدة جديد: وحدة العقل المستامة، فيها الفاهمة والعقل المحس - من حيث هو ملكة الأفكار (المبادئ) - متلازمان. من هنا يتأق للأفكار (المبادئ) معنى ايجابي: تنظيم الكثرة واحضار الوحدة المكتسبة فترتبط طبقاً لرسم خيالي<sup>(11)</sup> هو رسم اللاشرطي والمطلق والكلية الخيالي. ان في هذه اللخمة غرابة من نوع خاص: فما هو قابل للمعرفة ينضم من قبل لا شرطي كرسم خيالي لنسق، أما ما هو، كمما هو، فلا يمكن ان يكون موضوع معرفة<sup>(11)</sup>. أي، بكلام آخر، ان ما ليس موضوع معرفة، وهو لا مشروط، لا يمكن ان يكون موضوع معرفة، لكنه مفكّر به وهو قابل لأن يدخل كرسم خيالي لتنظيم موضوع المعرفة: وهذا من مهمات الجدل الترانسندنتالى الذي عليه ان يكشف عن صيغة الترابط بين اللامشروط المفكّر به ومواقع التجربة المكنته.

لقد بينَ كذلك ان التجربة من حيث موضوعها (كمظاهر)، لا حدود لها ما قمنا فيها، أي انها لا تخبر ذاتها كلّ، فتجربة الكل - كلية جميع مواضع التجربة المكنته ليست موضوع تجربة البة فلا تحصر التجربة ومواضعها الا برسم خيالي يكون فوق امكانيتها، ولا يحدد بذاته. لكن اراده الوصول الى وحدة تذهب الى ما وراء امكانية

التجربة هي من طبيعة عقلنا، لذا يعطي العقل لذاته الوحدة الستاتمية كمهمة عليه أن ينجزها. هنا تقترب الوحدة من أفهم الهدف، وكلاهما يقع خارج وحدة الفاهمة التأليفية كتجربة.

هل يمكننا ان نحدد الوحدة الستاتمية وان نقدم - من «نقد العقل المحسن» - الافاهيم الضرورية لفهمها؟

تفترض هذه الوحدة قبل كل وحدة الفاهمة التأليفية. يقول كنط : «فترض العقل معرفة الفاهمة القائمة بدءاً على التجربة وهو يبحث عن وحدتها بواسطة الأفكار التي تذهب الى أبعد مما يمكن للتجربة أن تصل اليه بكثير»<sup>(12)</sup>. ولكن ما هو «العقل» وما هي «الفكرة» في هذا السياق؟

يبحث العقل - «ملكة الأفكار» - عن وحدة «تسع الى خارج ما تطاله التجربة»، فهو وأفاهيمه المحضة، أي المقولات، لا تكفي متطلبه، لأن مبادئه وقوانين الفاهمة تبقى ضمن حدود التجربة الممكنة، أنها حماشه<sup>(13)</sup>. واستخدام العقل المحسن في هذا المستوى من التحليل لا يمكن ان يكون تكراراً للتجربة، انه متعال عليها له على ذاته مهمة «أن يقيم للفاهمة علاقة مع ذاته مثلما تقيم الفاهمة ببطأ بين الكثرة في الحدس تحت أفاهيم وتصل اليها»<sup>(14)</sup>. هذا نابع من طبيعة العقل وهو من باب الميتافيزيقا ولن يقصيه عنها نقد أبداً كان. ويضيف كنط : «ان العقل المحسن لا يقصد في البدء أبداً التجربة أو موضوعاً ما. انه يقصد الفاهمة ليمنح قبيلًا معارفها المختلفة ووحدة، وذلك بواسطة أفاهيم تصح تسميتها وحدة العقل وهي من نوع مختلف كلياً عن تلك التي باستطاعة الفاهمة ان تتحققها»<sup>(14)</sup>.

فعلى عكس قوانين الفاهمة التي كانت تحدد الموضوع (كموضوع للفاهمة)، لا يلي مبدأ العقل المحسن قانوناً على الموضوع ولا يحتوي سبباً يمكنه من معرفة أو تحديد الموضوع بأي شكل كان. وبهذا الصدد يقول كنط مبيناً الفرق بين الفاهمة والعقل، ان الفاهمة «خلق» أفاهيم عن الموضوع أما العقل فـ «ينظمها»<sup>(15)</sup>؛ وقانون العقل المحسن «قانون ذاتي لنصرف [العقل] بموارد فاهمنا»<sup>(16)</sup>، هو «شعار»<sup>(15)</sup> لا يوفر صحة موضوعية<sup>(17)</sup> ، ولا تنازق صلاحيته إلا على فقط، على الذات ويبقى شعاراً لها. أما معناه أو فحواه فهو معنى «كاللو»<sup>(18)</sup> الذي له في فلسفة كنط أهمية قصوى، يقيم تماثلاً بين موضوعية الموضوع كظاهرة فيعطيها ظاهرًا<sup>(19)</sup> جديلاً طبيعياً على «نقد العقل المحسن» ان يكشف عنه القناع.

نعم، ان صحة خاصة بي تعبّر عن وجود قانون ذاتي أمر. إلا أنه لا يأمر سوى الذات ولا يدعى الموضوعية، انه يبقى «شعاراً» من حيث صحة الموضوعية رديفاً لـ «كاللو» للتماثل بين الموضوعية والذاتية.

اما الجدلية فتكتمن في أن ما هو قانون ذاتي بحث، بات يعتبر قانوناً موضوعياً. هذه الجدلية هي التي تحمل على الأشياء بذاتها موضوعية لم تكن لها إلا بكونها مظاهر؛ في هذه العملية تصبح الأشياء بذاتها والمظاهر المفكر بها

(12) في الأصل : داخلية Immanent (م. و)

Maxime (13)

Als ob (14)

(15) في الأصل : وهو Schein

في تماثل يسمح بالانتقال إلى التماهي . ويحدد كنط التماهيل انه «افتراض تشابه كلٍ بين علاقاتين تقومنان بين أشياء مختلفة كلِّياً»<sup>(18)</sup> . هكذا مثلاً لا نعرف الله كشيء بحد ذاته وإنما نفكّر به فقط بالتماهيل مع موضوع تجربة ممكنة، وعالية العلة الأولى بالنسبة للعلم هي مثل علية العقل البشري بالنسبة لفعله<sup>(19)</sup> . ويصبح الأمر أيضاً عن الـ «كمال» الذي هو قانون ذاتي، أو قائم على قانون ذاتي . فإذا ما طبق التماهيل على الكلية واللامشروط والمطلق كما يطبق على التجربة، لوجب - عملاً بالقانونية الذاتية هذه - تطبيق تماثل مع التجربة في الفكر، والا لكان فارغاً . إن «نقد العقل المحسن» لا يمكنه ان يدمر هذا الظاهر الجدي [كان نفكّر بالله على غرار تفكيرنا بكتائن حبي] بل هو يكشف النقاب<sup>(20)</sup> عن هذا الظاهر كظاهر ليظهر في ذات الحين ضرورته الذاتية . والوهم الملزם للتماهيل هو وهم الصلاحية/ الصحة الموضوعية لا غير، يظهر النقد كيف يتولد عن قانون ذاتي للعقل .

إن المطلوب من العقل المحسن أولاً وقبل كل شيء هو الكشف «عن المبدأ المميز للعقل بذاته، أي الكشف عن لا - مشروط مشروطية معرفة الفاهمة الذي تكتمل به وحدته»<sup>(20)</sup> لكن «القواعد الآتية عن مبدأ العقل المحسن الأعلى مفارقة»<sup>(21)</sup> لجميع الظواهر، وهذا يعني أنه لا يمكن العمل به تجريبياً كما يجب . وبالتالي فهو مختلف اختلافاً كلّياً عن جميع قواعد الفهم<sup>(22)</sup> . من هذا المنطلق يتم التمييز الأساسي بين الفاهمة وأفاهيمها المحسنة من جهة، والعقل وأفكاره المتعالية من جهة أخرى . ان القولات، مثلاً، - وهي اشكال تحديد التجربة الممكنة - هي ذات طابع مطلق، أما الكل المطلق للتجربة الممكنة فهو بالنسبة للعقل المحسن مشكلة ضرورية، تأتي ضرورتها عن طبيعة عقلنا نفسها، وتبقى كلية التجربة الممكنة دوماً مشكلة، لأنها مطلب لا ينتهي ولا يكتمل، لا يصل إلى ركون نهائي ، إلى الواقع الموضوعي . ومن ناحية كونها مشكلة للعقل فسببه أن المعنى هنا هو كلية مفكّر بها لا موضوعاً قابلاً للمعرفة؛ كلية التجربة الممكنة هي «شيء مفكّر به» فقط، كما يفهم من قول كنط حين يمثل الوحدة المستترية على أنها «ليست سوى وحدة مخططة، لا يمكن اعتبارها قائمة بل هي مشكلة فقط»<sup>(22)</sup> .

وباعتبار طابع «المهمة» في هذا «الشيء الفكري»، تكتسب كلية التجربة الممكنة تحديداً دقيقاً: أنها رسم خيالي يسير بموجبه العقل؛ لهذا لا يعتبر كنط ان المبادئ «الترانسندنتالية تشكل حيراً جديداً لتعيين مواضيع جديدة»، فيفترض ذلك عندئذ قابلية خبرة تكون مكونة لها، بل يرى أن العقل المحسن يضع لنفسه بأفكاره الترانسندنتالية تلك أهدافاً فقط، تقرب معرفة الفاهمة نحوها لتكتمل المعرفة أكثر فأكثر<sup>(23)</sup> . هذا هو معنى الرسم الخيالي المرتبط ارتباطاً وثيقاً بما وجدناه في «القانون ذاتي» أو في الـ «كمال» أو في «التماهيل». فالعقل المحسن يقدم الرسم الخيالي لا على أنه «موضوع» معرفة - كما هي الحال في الفاهمة وموضوعاته - ولا على أنه قبل التجربة - يعني أنه لا يقع بين مواضيع التجربة الممكنة . كما أن الأفاهيم المكونة للفاهمة لا تطبق على رسم العقل الخيالي، ولهذا القول أهمية كبيرة بالنسبة لجدل العقل المحسن: أن أفاهيم الفاهمة وصور الحدس القبلية تطلق على التجربة الممكنة الا أنها لا تطلق على ما ليس كذلك، أي على كلية التجربة الممكنة، لهذا كان من الضروري ان نكشف عن أفاهيم العقل المحسن، عن الأفكار أو المبادئ الترانسندنتالية .

و مع التمييز الخامس بين الأفكار الترانسندنتالية وأفاهيم الفاهمة المضمة يتحقق في نظر كنط شرط هام من شروط علمية الميتافيزيقا<sup>(24)</sup>. فخطا كل فلسفة سابقة على «نقد العقل المضمن» أنها لم تقم بهذا التمييز بشكل قاطع واضح<sup>(25)</sup>. فأفاهيم الفاهمة المضمة تقصد التجربة الممكنة فقط ويجب أن تؤكّد بها، أما أفاهيم العقل المضمن فلا يمكن أن تعطى في التجربة ولا يمكن أن تؤكّد أو تنفي بها. كما أن عدم الوضوح في الفصل بين الشيء ذاته والظاهرة قد أدى إلى غموض في فهم طبيعة الأفكار كرسوم خيالية لا غير، فأصبحت وكأنها أشياء ذاتها وموضوعاً للحواس تحمل عليها أحكام ترتكيبية قبلية. إن التمييز هذا يوضح مرة أخرى الفرق القاطع الذي يصفه كنط بين الوحدة التأليفية والوحدة المستامة.

ان العقل المضمن «يحتفظ لنفسه بوحدة الكلية المطلقة في استخدام أفاهيم الفاهمة ويبحث عن الوحدة التأليفية ليرقى بها إلى اللامشروط المطلق»؛ من هنا سميت وحدة العقل للمظاهر، في حين تعبّر تلك الفاهمة عن المقولات عن وحدة الفهم<sup>(26)</sup>. لكن الوحدة التي ينظر إليها على أنها رسم خيالي يشمل الكلية المطلقة للتجربة الممكنة يسمّيها كنط الوحدة الإجمالية<sup>(27)</sup>. وهنا نجد أنفسنا أمام ثلاثة أفاهيم للوحدة التي ينحو نحوها العقل: الوحدة المستامية الوحدة المخططة والوحدة الإجمالية. أنها كلها من طبيعة ترانسندنتالية أي أنها ضرورية للعقل، ان صحتها ذاتية فقط، لكنها «ليست مختلفة عشوائياً»؛ هي معطاة بطبيعة العقل وهي وبالتالي تقصد استخدام الفاهمة كلها بالضرورة<sup>(28)</sup>. الأفكار أو المبادئ الترانسندنتالية هي كمال استخدام الفاهمة ومعرفتها، وهذا ما يعنيه القول أنها مشكلة العقل<sup>(28)</sup>.

لكن الفاهمة بدورها هي «جزء» من العقل والعمل بها هو العمل بالعقل من حيث يقصد التجربة كما ان أفاهيم الفاهمة المضمنة معنية، ولا تقوم تجربة بذاتها، أنها في داخل التجربة، ألا يجوز لنا من هنا أن نحدد افهموم - الشيء - بذاته ولو تحديداً سلبياً على انه لا - شيء - التجربة المحددة لها، لا أكثر ولا أقل؟ ثم من حيث أن الأفكار / المبادئ / هي أفاهيم العقل المضمن المهم بذاته؛ ألا يأتي على افهموم - الشيء - بذاته ومن هنا معنى انه لا يحصر في التجربة ولا يمكن أن يعين تجربة ممكنة؟ ان الأفكار تقصد الشيء ذاته لا كموضوع لها - وهنا يكمن الوهم الجدي - بل كرسوم خيالي لتنظيم التجربة.

ومن قبيل الشمولية والضرورة - أساس المعرفة الترانسندنتالية - يأتي لوحدة العقل معنى خاص: أنها لا تطلق لكي تؤكّد علاقات موضوعية، وإنما وقعت هي بدورها في نطاق التجربة الممكنة؛ بل معناها ذاتي بحث، تحدده طبيعة العقل المنظم للتجربة (الوحدة المستامية) بحيث تظهر علاقتها وتنظم إلى وحدة. ويتسع هذا التنظيم على ثلاثة مجالات:

أولاً: الذات الواقعية.

ثانياً: تعدد وكثرة الأشياء في الطبيعة كظاهرات خارج الذات.

ثالثاً: ما ليس بموضوع ولا يمكن أن يكون موضوعاً معنى الذات أو الظاهرة.

المعنى في المجال الأول هي النفس كمبدأ للتنظيم، وفي المجال الثاني الطبيعة كعامل، وفي المجال الثالث الله،

نقطة الوحدة العليا. يستند كنط في استنتاج الأفكار أو المبادئ المتعالية هذه إلى اللامشروط كما وتأتي ثلاثيتها من إسنادها إلى أنواع القياس الثلاثة: الحجمي والشرطي المتصل والشرطي المنفصل<sup>(29)</sup> ولعله يهدف من وراء ذلك إلى إعطائها طابع الصحة الذي لقوانين المنطق. وهو إذ يؤكد أن هذه الأفكار غير ضرورية بالنسبة للتجربة لا يعني ذلك إلا جزئياً: إنها غير ضرورية لخبرة الموضوع وإمكانية هذه الخبرة كما أنها ليست شرطاً لامكانية التجربة كتجربة، إلا أنها ضرورية من ناحية أخرى، أي بالنسبة للعلاقة الموحدة للخبرة، وهذا ما يؤكد سؤال «نقد العقل المحسن»:

أولاً: كيف تكون الأحكام التالية ممكنة قبلياً؟ وثانياً: كيف تكون الميتافيزيقاً كعلم ممكنة؟ ولا شك أن بين الأفكار وأمكانية التجربة شرحاً ولكن بينهما أيضاً علاقة محددة، يمكن في تحديدها طابع الميتافيزيقا النظرية.

في الفكرة الترانسندنتالية الأولى تدرك الذات كجوهر، يبحث عن لا مشروط للتركيب مطلق في ذات تكون جوهرًا، والمطلوب هو وحدة الشروط الذاتية في كلية غير مشروطة ومطلقة؛ وهنا يقول كنط: أن الفكرة الترانسندنتالية الأولى تتجه نحو «الوحدة المطلقة للذات المفكرة»<sup>(30)</sup>؛ إنها موضوع السيكلولوجيا (الميتافيزيقية)<sup>(31)</sup>. لكن كلمة موضوع هنا لا يجوز أن تؤخذ بالمعنى الدقيق للكلمة فالنفس ليست موضوعاً لأدراك حسي ما<sup>(32)</sup>، بل إن الذات - وهي جوهر بمعنى الفكرة الترانسندنتالية الأولى - تجمع في ذاتها الشروط الذاتية إلى لا مشروط، وهدفها في ذلك «الوحدة المستامة لجميع ظاهرات الحس الداخلي»<sup>(33)</sup>؛ أما كونها رسماً خيالياً ترانسندنتالياً فلا يتبع اطلاق أي حكم تأليفي عليها، إنها لا تحمل أية صفة يكون من ورائها اعتداد بصحة ما؛ فالسؤال حول روحانية النفس<sup>(34)</sup> هو بلا معنى ففي الفاهمة وحدها تتم احكام تأليفية، انه لا يدرك الذات الا كموضوع تجربة (كذات فردية واقعية)، فهو يدرك مشروطاً ويحمل عليه صفات. أما من منظور مطلقة الذات كرسم خيالي للعقل المحسن، فكل الصفات المحمولة على الذات تبقى مجرد اعراض منها بقاء أو خلود النفس، وهو لا يقال الا على سبيل التهافت بين مستويين من طبيعتين مختلفتين: زمنية الواقع الحسي ولا زمنية الفكر المحسن ويفترض القول أن النفس خالدة تماماً كاماً بين المستويين منطلقاً من المستوى الزمني كمثال، وهنا مرة أخرى اساس ظهور كل جدلية.

أما الفكرة الترانسندنتالية الثانية فتتجه نحو وحدة كثرة الموضوعات كظاهرات أي «الوحدة المطلقة لسلسلة شروط الظاهرة»<sup>(35)</sup>، التي يسميها كنط فكرة العالم (الفكرة الكوزمولوجية). إنها تبحث عن علة مطلقة لسلسلة «السبب والنتيجة» عن مبدأ وحدة ينظم الطبيعة في علمية مواضيع المعرفة، حيث تكون الطبيعة المتقطمة وحدة مستامة. إنها «موضوع» الكوزمولوجيا (الميتافيزيقية) الحقيقي فكرة العالم. فمفهوم العالم هو نتيجة ومشكلة من نتائج ومشاكل العقل المحسن. إلا أنه علينا أن نضيف حالاً أن العالم - ككلية - لا قوام له بذاته، فهو - من منظور قوانين الفاهمة - «ليس سوى سلسلة الظاهرات المرتبطة ببعضها البعض طبقاً لقوانين عامة»<sup>(36)</sup>.

يختص كنط للفكرة الكوزمولوجية أوسع الأبحاث في «نقد العقل المحسن». وهو الذي أولى العلوم الطبيعية اهتماماً خاصاً، كما انه يريد على مدى البحث كله ان يبين من هنا امكانية دحض الدغمائية والاميرية<sup>(37)</sup>، خاصة

(19) في الأصل: الاميرية (م. و)

وان اهتمامه هذا يوضح الجدلية لديه ويأتي بتعابات عده على نقه الثالث «نقد ملكة الحكم». لكننا نرى ان السبب الاهم لهذا التوسيع هو تبيان امكانية الحرية، النابعة من تبيان الارادة كعملة في الطبيعة. وللفكرة الكوزمولوجية اهمية تأثيرها من موضع آخر: يعتبر كنط الأفكار الترانسندنتالية الثلاثة: الذات، العالم، الله، بمثابة بناء تراتيسي متدرج نحو الأعلى، للدرجة الثانية فيه دور «الوسط» الذي «ينقل» الذات نحو الله كما ستبينه فلسفته اللاحقة.

وفي الفكرة الترانسندنتالية الثالثة، تقصد الوحدة اللامشروطة لجميع «موضوعات» الفكر على الأطلاق. انها الفكرة العليا التي تمثل تركيب الفكرتين الاخرين فتتجاوز بذلك حدود كونها فكراً نظرياً؛ وهي التي يسميهما كنط «المثال الأعلى للعقل»<sup>(37)</sup>. هي الوحيدة التي لا تأتي عن التجربة، ولا علاقة بينها وبين الذات (كجوهر) أو الموضوعات ووحدتها كظاهرات (العالم)؛ انا فقط في علاقة مع وحدة كل الموضوعات الممكن ان يفكرا بها، ومن هنا قربها من أن تكون من باب العقل العملي، لا النظري. ففكرة الله عند كنط هي قبل كل شيء افهم اخلاقي في حين أن فكرة العالم والنفس تبيان على حياد ملحوظ من الأخلاق في «نقد العقل المضلل» مع العلم أن علاقة فكرة العالم بالأخلاق - ومن ثم بالله - ستكون معضلة جوهرية في فهم الوحدة من قبيل «الغاية»<sup>(38)</sup> وستحتل أهمية محورية في فلسفة كنط في التقديرين التابعين.

يبقى السؤال عن الوحدة الرابطة بين المبادئ الترانسندنتالية نفسها، خاصة وأن في «نقد العقل المضلل» اشارة واضحة الى أن «بين الأفكار الترانسندنتالية رابط ووحدة»<sup>(37)</sup> يصفها كنط بأنها شبيهة في عمليتها «بتقدم العقل من المقدمات الى التبيّجة»<sup>(38)</sup>، لكنه يبقى في غموض حول طبيعتها وقوامها. وعند كبار تابعيه كفخته وشلينغ وهيغل كما وعند الشراح والمفسرين اللاحقين، ان كنط لم يقدم شرحاً عن هذه الوحدة لا بل انه - من منطلق فلسفته النظري - لم يكن بإمكانه تقديم مثل هذا الشرح. أما الإشارة المذكورة باتجاه المنطق فتؤكد سعي فيلسوف كونفسبرغ وراء علمية في الفلسفة بقيت نظرية ومن طبيعة العقل الذاتية؛ ان وحدة العقل المشودة - وان كانت في «نقد العقل المضلل» ضرورة - غير أنها تبقى سستامية ذات طابع تنظيمي شكلي، آت عن طبيعة العقل الذاتية.

وحين اظهرت الجدلية الترانسندنتالية ضرورة ومعنى وحدة العقل، قدمت بذلك جواباً عن سؤال «نقد العقل المضلل» حول امكانية الميتافيزيقا كعلم، كما سبق فقدم جواب عن سؤال النقد الأول حول وحدة الفاهمة وشروطها القبلية ومع مشروطية وعلاقة هذه بذلك وتبيان معناها وتعاباتها تكون الفلسفة الترانسندنتالية قد بلغت احد اهدافها الأساسية وفتحت بذلك أفق فلسفة جديدة كان كنط معلّمها الأول.

لكن الوقوف عند النقد الأول يسيء الى هذه الفلسفة خاصة في موضوع الوحدة. وقد سعى كنط نفسه، قبل فخته وشلينغ وهيغل، وذلك في التقديرين الآخرين، الى جواب غير الذي قدمه في النقد الأول؛ فهو الذي وجد ان جوابه فيه حول وحدة الفاهمة ووحدة العقل، على الرغم من أنه قد «وسع المعرفة الى خارج حدود التجربة»<sup>(39)</sup>، الا انه لم يقدم سوى «مبادئ توجيهية تبني وحدة اكب»<sup>(40)</sup> مما يقوم به الفهم منفرداً. وان هذه

المبادئ لتشير الى أن العقل يطلب بطبعه وحدة يتجه نحوها كهدف، وهي تبقى غايتها العليا. فيكون هنا أول ربط حقيقي بين الوحدة والغاية وتبعد الغاية تظاهر كمبدأ توجيهي للعقل، تبحث الفلسفة الترانسندنتالية من خلاله ليس عن «طبيعة تكوين الموضوع»، بل كيف علينا بتوجيه منها [الغاية]، أن نرى طبيعة وعلاقات موضوعات الظاهرة بذاتها<sup>(41)</sup>. وفي «نقد العقل المضلل» اشارات واضحة الى أن الغائية تدل في نهاية الأمر الى الفكرة الترانسندنتالية الثالثة، فكرة الله. وهو سياق شرط وحدة جديدة تظهر في الوحدة بين النظري والعملي في فلسنته والعلاقة بينهما. وقد تأخذ القاريء المتمعن دهشة إذ يرى ان كنط في مرحلة «نقد العقل المضلل»، قد اعتبر «العملي» غريباً عن الفلسفة الترانسندنتالية<sup>(42)</sup> وان اردنا تأويل فلسفته بكل حسن نية فعلينا القول، إن العملي يبقى موضوع تساؤل. ويشهد على ذلك أن كنط قد أدخل «الأمر المطلق» على فلسفته على أنه واقع، معطى، يقع تحت عملية جرد لواقع الفكر، إلا أن البحث حول شمولية صلاحيته وإمكاناته القبلية فلم يقدم كنط عنها جواباً؛ وهذا ما سوف يحمل فحصه على القول، إن السؤال حول وحدة العقل الحقيقة يبقى غريباً عن كنط، فإن «مبدأ كنط الأعلى هو تأليف لاحق على الحدث»<sup>(43)</sup>.

## الحواشي

(\*) تعود النصوص المذكورة في هذا المقال الى كتابي كنط: «نقد العقل المضلل» [Kritik der reinen Vernunft] و[المقدمات] [Prolegomena] في أصلها الألماني وكما نشرت في الطبعة الأصلية. وقد اعتمدنا اختزال الأول بـ (KR.) مع الاشارة الى الطبعة الأولى (A) والثانية (B). أما الكتاب الثاني فقد اختزلنا عنوانه الى (PR.).

- |   |      |
|---|------|
| KR. B 502                                       | (1)  |
| KR. B 860                                       | (2)  |
| KR. B 860                                       | (3)  |
| اعمال هيغل الكاملة (النص الألماني) مجلد 8 ص 431 | (4)  |
| KR. B XXXVII-VIII                               | (5)  |
| KR. B 19  | (6)  |
| PR. 111   | (7)  |
| PR. 140   | (8)  |
| PR. 140   | (9)  |
| PR. 138   | (10) |
| راجعاً 141-142                                  | (11) |
| KR. B 690                                       | (12) |
| KR. B 362                                       | (13) |
| KR. B 359                                       | (14) |
| KR. B 671                                       | (15) |
| KR. B 362                                       | (16) |
| KR. B 363                                       | (17) |

---

PR. 145	(18)
PR. 148	(19)
KR. B 364	(20)
KR. B 365	(21)
KR. B 675	(22)
راجع : فقرة 44	(23)
راجع فقرة 41	(24)
الموضع نفسه	(25)
KR. b 383	(26)
KR. B 484	(27)
راجع 141	(28)
KR. B 739	(29)
KR. B 391	(30)
KR. B. 391/92	(31)
KR. B 393	(32)
KR. B 710	(33)
KR. B 712	(34)
KR. B 391	(35)
PR. 141	(36)
KR. B 394	(37)
KR. B 395	(38)
KR. B 729/30	(39)
الموضع نفسه.	(40)
KR. B 699	(41)
KR. B 801	(42)

J.G. Fichte: Wissenschaftslehre-1804 - 104-102 ص 102 ، مجلد 10 ، الأعمال الكاملة (43)